

اجتهادات أن تكون مستقلا

اتفق كثير من المفكرين والفلاسفة منذ القدم على أن الإنسان يولد صفحةً بيضاء. نجد هذا المعنى في أعمالٍ فكرية وفي أقوال حكماء في عصور مختلفة من التاريخ. ويُعتقد أن الفيلسوف الإغريقي أرسطو أول من قال إن الإنسان يولد وليس في عقله شيء، ثم يكتسب الطريقة التي يفكر بها ويُشكل قيمه واتجاهاته حسب الظروف التي ينشأ ويعيش فيها. ونجدُ هذا المعنى في العلم أيضًا، منذ أن توصل سيجموند فرويد إلى أن الطفل لا يكون خيرًا أو شريرًا حين يولد.

غير أن الصفحة البيضاء التي يكون عليها عقل الإنسان وقت ولادته لا تستمر. فما هي إلا أشهر حتى يُنقش فيها ما يُغيّر لونها. وكثيرة الألوان التي تُلوّن بها عقول البشر. قد يبقى لونٌ اكتسبه المرء في صغره معه في مراحل عمره المختلفة، وقد يتغير اختيارًا أو إجبارًا. وغالبًا ما ترتبط هذه الألوان بتجارب وتصورات واتجاهات مختلفة. وقد يكون اللون معتدلاً

أو صارخًا حسب الظروف التي تحيطُ المرء في كل مرحلةٍ في حياته.

وكثيرًا ما يرتبطُ هذا اللون بانتماءٍ إلى جماعات اجتماعية إما أولية أو حديثة أو كليهما. ويميل البشر في الأغلب الأعم للانتماء إلى إحداها أو أكثر، إما لأنهم يجدون فيها ما يتفق مع ميولهم واتجاهاتهم، أو لأنهم يلوذون بها من أخطارٍ داخلية أو خارجية.

ولهذا يقل عدد المستقلين عن مختلف الجماعات، أو الذين يحافظ كل منهم على مسافةٍ كافية من جماعةٍ يميل إليها ولا يندمج فيها. الاستقلال الكامل، أو شبه الكامل، صعب. والمحافظة عليه في زمننا أصعب. والأكثر صعوبة أن يحافظ المرء على استقلاله الثقافي والمعرفي والفكري، وأن يُبقى عقله مفتوحًا ومنفتحًا. ولهذا تضيق مساحاتُ الاستقلال حتى في مجالاتٍ كان للمستقلين حضورٌ قوى فيها، مثل السينما. قرأت أخيرًا أن صالات العرض المتخصصة في الأفلام المستقلة في بعض البلدان الأوروبية مُهددةٌ بالغلق، لأنها لا تحقق إيراداتٍ تكفي لاستمرارها. إقبال الجمهور على صالات العرض السينمائي يقل، فيما تُحجم المنصات الإلكترونية عن

عرض الأفلام المُستقلة. فما أصعب أن تكون مستقلاً في هذا الزمن.